

البلاغة والأسلوبية أو إشكالية المعيارية والوصفية

الدكتور رابح بن خوية – جامعة 20 أوت 1955 – سكيكدة – الجزائر

ملخص :

إنّ من مسوِّغات المقاربة الرَّاهنة للعلاقة بين البلاغة والأسلوبية اشتغال كليهما على الخطاب اللغوي والأدبيّ، سواء في ذلك البلاغة العربية أو البلاغة الغربية الكلاسيكية والأسلوبية كبديل للبلاغة وتجاوز. قبل الخوض في العلاقة الكامنة بين البلاغة والأسلوبية بوصفهما علمين وبوصفهما منهجين، تجدر الإشارة إلى الأسلوبية مصطلحا ومفهوما، بشكل جدّ موجز، دون الإشارة إلى البلاغة التي تحوّلت إلى علم قائم على فروعه الثلاثة البيان والمعاني والبديع كما تتّضح صورته في كتاب كالايضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني مثلا.

1- الأسلوبية :

الأسلوبية أو 'علم الأسلوب' فرع من اللسانيات اقتحم في ثقة أكيدة وعزيمة وطيدة عالم النقد الأدبي بعد الدعوة إلى علمية النقد والتخلي عن المناهج الانطباعية.

ومصطلح 'الأسلوبية' هو ترجمة عربية لما اصطلح عليه في الفرنسية بـ '*Stylistique*'، أما 'علم الأسلوب' فبديل اصطلاحى عربي آخر لما اصطلح عليه، أيضا، في الفرنسية بـ '*Science Du Style*'.

ويقدم المسدي في كتابه 'الأسلوبية والأسلوب'، وهو من طليعة الدارسين العرب المختصين في هذا الميدان والمطلعين على مسيرة الدرس اللساني والأسلوبي والنقدي في الغرب تحديدا في فرنسا التي تعد البيئة الأولى التي احتضنت ميلاد هذا العلم على يد شارل بالي في مطلع القرن الماضي، تحليليا علميا موضوعيا لإشكالية هذا المصطلح.

فالمصطلح 'أسلوبية'، في نظره، "حامل لثنائية أصولية فسواء انطلقنا من الدال اللاتيني، وما تولد عنه في مختلف اللغات الفرعية، أو انطلقنا من المصطلح الذي استقر ترجمة له في العربية وقفنا على دال مركب جذره 'أسلوب' (*Style*) ولاحقته 'ية' (*Ique*) وخصائص الأصل تقابل انطلاقا أبعاد اللاحقة، فالأسلوب ذو مدلول إنساني ذاتي، وبالتالي نسبي واللاحقة تختص فيما تختص به – بالبعد العلماني العقلي وبالتالي الموضوعي، ويمكن في كلتا الحالتين، تفكيك الدال الاصطلاحي إلى مدلوليه بما يطابق عبارة 'علم الأسلوب' (*Science Du Style*) لذلك تعرف الأسلوبية بداهة بالبحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب." (1).

ورغم ما اقترح من بدائل اصطلاحية لهذا العلم، على مستوى اللغة العربية، كـ 'علم الأسلوب' أو 'الأسلوبيات' التي يفضلها سعد مصلوح لطواعيتها في التصريف وصياغتها على زنة واحدة ولقربها من اصطلاحات مماثلة كاللسانيات والصوتيات، فقد راج مصطلح 'الأسلوبية' في النقد الأدبي.

1 عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط: 2، 1982، ص: 33-34.

ولا يثير هذا المصطلح أية مشكلة على خلاف غيره. وقد استقرت المعاجم اللغوية على تعريف (الأسلوبية) تعريفا عاما يتأسس على عدها: "الدراسة العلمية للأسلوب".⁽²⁾

وتعرف (الأسلوبية) في الدراسات المختصة الأسلوبية واللسانية بأنها: "علم يهدف إلى دراسة الأسلوب في الخطاب الأدبي، وتحديد كيفية تشكيله وإبراز العلاقات التركيبية لعناصره اللغوية".⁽³⁾

فهي الدراسة العلمية الموضوعية لمكونات لغة الخطاب في علاقاتها الإسنادية والسياقية وهي تسعى إلى الكشف عن العلاقات القائمة بين المكونات في بعدها البنوي والوظيفي، وذلك بالإشارة إلى الفروق التي تنتج وتتولد في سياق النسيج الأسلوبي ووظائفه، وهي تسعى من خلال ذلك إلى اكتشاف القوانين التي تتحكم في بناء الأسلوب في الخطاب الأدبي.

ويعرفها منذر عياشي بأنها: "علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب، ولكنها أيضا علم يدرس الخطاب موزعا على مبدأ هوية الأجناس، ولذا كان موضوع هذا العلم متعدد المستويات مختلف المشارب والاهتمامات، متنوع الأهداف والاتجاهات. ومادامت اللغة ليست حكرا على ميدان إيصال دون آخر، فإن

2 انظر: Le Petit Larousse .

Le Robert D illustré, Larousse, Paris, 1995 p: 966

Alphabet, Paris, Ed6 1981, p: 370.

3 نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج:1، دار هوم، الجزائر، 1997، ص: 239.

موضوع علم الأسلوبية ليس حكرا، هو أيضا، على ميدان تعبيرى دون آخر.⁽⁴⁾

أما محمد عزام فيعتبرها "علما تحليليا تجريديا يرمي إلى إدراك الموضوعية في حقل إنساني عبر منهج عقلائي"⁽⁵⁾، وتكاد تعريفات الأسلوبية في الكتابات العربية النقدية تلتقي أو تصب في مفهوم واحد، فهي، كما يعرفها عدنان بن ذريل: "علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب العادي، أو الأدبي خصائصه التعبيرية والشعرية فتميزه عن غيره، إنها تتقرب (الظاهرة الأسلوبية) بالمنهجية العلمية اللغوية وتعتبر (الأسلوب) ظاهرة هي في الأساس لغوية تدرسها في نصوصها وسياقاتها."⁽⁶⁾

وقد خلص جوزيف ميشال شريم إلى القول، متجنباً كثيراً من الخلافات، بأن: "الأسلوبية هي تحليل لغوي موضوعه الأسلوب وشرطه الموضوعية وركيزته الألسنية."⁽⁷⁾

والملاحظ أن هذه التعريفات لا تختلف عن نظيرتها في النقد الغربي فهي، مثلاً، عند ريفاتار: "علم يعنى بدراسة أسلوب الآثار الأدبية دراسة موضوعية، وهي

4 منذر عياشي: مقالات في الأسلوبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط:1، 1990، ص: 29.

5 محمد عزام: الأسلوبية منهجاً نقدياً، ص: 11.

6 عدنان بن ذريل: اللغة والأسلوب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1980، ص: 140.

7 جوزيف ميشال شريم: دليل الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط: 2، 1987، ص: 37-38.

لذلك تعني بالبحث عن الأسس القادرة في إرساء علم الأسلوب.⁽⁸⁾ وهي، كما يتصورها، بيير جيرو دراسة للتعبير اللساني في مقابل الأسلوب الذي يعني طريقة للتعبير عن الفكر بوساطة اللغة.⁽⁹⁾ وفي سياق المقارنة بينها وبين البلاغة يعدها بلاغة حديثة ذات شكل مضاعف إنها علم التعبير وهي نقد للأساليب الفردية.⁽¹⁰⁾ وهي، عند، ميشال أريفي *Michel Arrivé*: " وصف لغوي للنص الأدبي".⁽¹¹⁾

والملاحظ، كذلك، أن السمة المميزة لغالبية الدراسات الأسلوبية بشقيها النظري والتطبيقي عندما تعرض لمفهوم الأسلوبية والإشكالات التي تثار حول أدائها الإجرائية في تحليل الخطابات الأدبية، هي الطابع الوصفي الذي يقوم من خلاله بحث الأسلوب إلا أن طابعا آخر بدأ يترك لمساته في المباحث الأسلوبية هو الطابع التاريخي والتطوري الذي يلح على ضرورة العناية في تحليل العناصر الأسلوبية على أساس ارتباطها بتطور الأصوات والدلالات خلال الزمن، وهنا ينبغي دراسة أسلوب المؤلف عن طريق مقارنة أعماله بعضها ببعض في مراحل زمنية متتابعة، وهكذا يكمل المنظور التطوري الجانب الوصفي.⁽¹²⁾

8 عبد السلام المسدي: (محاولات في الأسلوبية الهيكلية)، ص: 110.

9 بيير جيرو: الأسلوب والأسلوبية، ص: 06.

10 المرجع نفسه، ص: 05.

11 عزة آغا ملك: (الأسلوب من خلال اللسانيات) مجلة الفكر العربي المعاصر، ع: 38، آذار 1986، ص: 84.

12 صلاح فضل: (علم الأسلوب وصلته باللغة) مجلة فصول م: 5، ع: 1 أكتوبر /نوفمبر /ديسمبر 1984، ص: 58.

2-البلاغة والأسلوبية : القواسم المشتركة :

لا يتم الحديث عن الأسلوبية بوصفها علما قائم الأسس دون أن يكون مشفوعا بحديث عن علاقتها بعلم البلاغة، الذي يعد ضمن العلوم المساعدة لها كما هو حال اللسانيات بما احتوت عليه من معارف تحولت مع الزمن إلى علوم مستقلة.

وأول ما يربط البلاغة بالأسلوبية اشتراكهما في الموضوع وفي المادة إذ كلاهما يتناول الخطاب الأدبي، فقد حاولت البلاغة اكتشاف أنواع التعبير المختلفة وتسميتها وتصنيفها وهذه خطوة يعتد بها في إقامة جميع العلوم لكن البلاغة بعد ذلك لم تحاول البحث في الهيكل أو البنية العامة لهذه الأنواع، وهذا جعلها تنتهي إلى العقم والتجمد ولكنها بعثت من جديد تحت اسم الأسلوبية التي أقيمت على أسس علمية سليمة متجاوزة الطابع الجزئي والمعياري لمقولات البلاغة.

فالبلاغة لم تستطع اكتشاف النظم الفعالة ولم تتجاوز ما هو قائم، ولم تستشف الآفاق الممكنة في عملية الخلق اللغوي المستمرة في الأدب.⁽¹³⁾

وفي ظل هذا التصور لطبيعة العلاقة بين العلمين دأبت الأسلوبية في بحوثها على السؤال عن الخصائص المشتركة المحتملة بين القافية والاستعارة والقلب والتضمين، وشرح فعاليتها الفنية والسؤال عن إمكانية اعتبار جميع هذه المكونات البلاغية وسائل وعوامل شعرية تقوم بوظيفة خاصة ومستقلة أم تشترك في إحداث الأثر،

13 صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1992، ص: 365.

ويعد من مزايا البلاغة القديمة إصابتها في وضع هذه الوسائل على المستوى الشكلي، فإنها ظلت قريبة من المستوى المادي الذي تقوم فيه كل وسيلة بدورها المحدد، عندما ركزت على الفروق القائمة بينهما فحسب.

فالاتجاهات النقدية الحديثة وفي مقدمتها الأسلوبية والبنوية تبحث عن العامل الشعري الذي تعد الصور وكل الوسائل الفنية مجرد تحقيقات، أو تعد ذات فعالية له لأن هذه الاتجاهات وقفت في مستوى شكلي أعلى وأعمق وبحث عن شكل للأشكال.⁽¹⁴⁾

فالقافية، إذا، كانت تنتمي إلى المستوى الصوتي الموسيقي، والاستعارة إلى المستوى الدلالي فهناك تداخل بين هذين المستويين يتصل ببنية التركيب الشعري وخصائصه الموسيقية والدلالية معا.⁽¹⁵⁾

وقد كانت العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة محطة أخرى من محطات الفكر النقدي الذي يصبو إلى تأسيس القواعد النظرية في شبكة الروابط من الواقع المعرفي، ولا مناص للباحث الأسلوبي من الوقوف عند جميع الإشكالية التي تتصل بعلمه وموضوع بحثه بالمعارف المورثة، فتأصيل العلم بحاجة إلى الاطلاع ومعرفة ملامح الجذور الممتدة في تاريخ العلم وكثير ما تنحل المشكلات في ميدان الأسلوبيات وتجد الأسئلة المثارة إجابتها في هدى التراث. وتراثنا الأدبي عرف الظاهرة الأسلوبية ودرسها ضمن الدرس البلاغي الذي كان درسا أسلوبيا على وجه الإجمال وما كان ذلك ليكون إلا لأن الدرس اللغوي واللساني كان سابقا على الدرس البلاغي

14 سامي الربيع: (البنائية والتحليل الأدبي) مجلة الفيصل، ع: 103، سنة 1995، ص: 29.

15 صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص: 366.

في التراث العربي، وهكذا التقت الدراسة الأسلوبية بالبلاغية في دراسة أسرار الإعجاز اللغوي والبياني، وتحولت غايات البلاغة القديمة إلى غايات أسلوبية، بلا فرق فقد كانت هذه الغايات شتى.

وتتلخص في نقاط أربعة:

- 1-دراسة الإعجاز كسمة تظهر بها فرادة القرآن وخصوصيته.
- 2-دراسة الأدبية سمة تظهر بها فرادة النص الأدبي وخصوصيته.
- 3-دراسة اللغة كأداة إيصال، بها ينتقل النص، وبها يقول نفسه ويخبر عن مضمونه.
- 4-دراسة اللغة كغاية النص وهدف الإيصال، فالنص لا يقول شيئا سواه.⁽¹⁶⁾

وفي ضوء هذا المعطى التراثي فقد استقامت البلاغة علما وصفيا وتفسيريا وهذه خاصة تجمعها من حيث الهوية مع الأسلوبية. ولكن تحول بعد ذلك مع الوقت، وفي هذا السياق يقول عبد السلام المسدي: "فالبلاغة ذات مترع تقريري بالدرجة الأولى، ثم هي تستند إلى منظومة تصنيفية اشتقت في أصلها من استقراء الحدث الأدبي في تحليلاته الفنية ولكنها أنتجت مقاييس جاهزة بها تصرف فن القول في توليد مضامينها، أو نحت أشكالها فإن الحلل البلاغي لها لا بد أن يصنفها ضمن زوايا منظومته المرجعية أما الأسلوبية فإنها بحث دائم من داخل النص الإبداعي عن جماع الخصائص التي تحولت في سياقها المحدد إلى مميزات فنية والحلل الأسلوبي في إجراءاته الشارحة ربما احتكم إلى منظومة مرجعية ما، ولكنها ليست منظومة من ذات العلم الأسلوبي بحيث تتحول إلى القيد الإجرائي أو معيار قصري." ⁽¹⁷⁾

16 منذر عياشي: مقالات في الأسلوبية، ص: 191.

17 عبد السلام المسدي: في آليات النقد الأدبي، ص: 68.

وهذا الاختلاف الملحوظ في هوية كل العلمين يجعل الشرح البلاغي مفسرا لتقلبات البناء اللغوي في حدود الدائرة المباحة التي يحددها المعيار المرجعي الذي يستند إلى البنية النحوية، وما يقوم الأدب به من مراوحات تمثل فضاء العدول عن المعيار إزاءها. بينما الشرح الأسلوبي يقتصر على تفسير ما ينتج عن تلك التقلبات اللغوية من مميزات تهيئ للغة إبداعيتها، ومعنى ذلك أنه يقوم بعملية استنطاق بني النص في دواله وفي مدلولاته، وتغيير طبيعة الاقتران بينهما، هذا الاقتران الذي أثر شعري النص وحول لغته من مجرد أداة إلى إبداع تم باللغة في إطار اللغة.⁽¹⁸⁾

ونتيجة لهذا الالتباس الذي يحدث بين طبيعة العلمين بالنظر إلى تداخل أدواتها الإجرائية أحيانا، قد ظهرت مقاربات نقدية متنوعة تعتبر من الأبحاث الأسلوبية وتحمل عناوين توحى بذلك من قبل 'دراسة أسلوبية' أو 'تحليل أسلوبية' وهي في صميمها تحليلات بلاغية لنصوص أدبية، وهذا لا ينكر على الأسلوبية أن تستثمر من الأدوات البلاغية ما تراه قريبا من منظومتها المفهومية، وما يعد بمثابة المفاتيح لولوج عوالم الإبداع أحيانا، ولكن على الأسلوبية أن لا تقع في المزالق التي أودت بالبلاغة وعليها أن تتجاوز ذلك بما تكلفه لها اللسانيات الحديثة ولسانيات النص من أدوات فعالة.

وقد سعى هنريش بليث إلى إعادة إحياء البلاغة بروح جديدة، فالمفهوم العلمي الحديث للبلاغة يخالف اعتبارها فنا فحسب، بل البلاغة منهج يمس خاصية ملازمة للإنسان هي الكلام، ويعد الهدف الأول والنشاط الأساسي للبلاغة العلمية، اليوم، ليس إنتاج النصوص، وهذا يفهم بالاحتكام إلى معايير سابقة، بل تحليلها داخليا وفق معطيات حضورية.

18 المرجع نفسه، ص: 69.

وعملية بناء البلاغة بعدها منها لتتحليل النصوص يركز على مبررين:
الأول ويحمل طبيعة تاريخية، فنصوص كثيرة تنتج حسب قواعدها،
وعندما تستعمل بعد ذلك المقولات البلاغية لتأويل تلك النصوص فإننا سنكشف
عن تركيبها الشكلي القصدي، فما كان متصورا عن طريق الفكر والتعبير المعيارية
أمكن إدراكه بفضل الوصف العلمي.

والمرر الثاني فذو طبيعة جوهرية ومنهجية، فقد أثبت النسق البلاغي قابلية
الاستمرار ومرونة تسمح في التمادي في تطبيقه على نصوص جديدة، ومن ثم يمكن
تطبيق البلاغة بلا تردد على جميع النصوص الممكنة.⁽¹⁹⁾

وهكذا فالبلاغة تقيم علاقات وطيدة مع الأسلوبية منذ زمن بعيد فقد تقلص
الأسلوبية حتى لا تعدو أن تكون نموذجا للتواصل البلاغي وتتسع حتى تكاد تكون
بديلا للبلاغة وتجاوز لها.

ولا غنى لنظرية الأدب عن البلاغة والأسلوبية فهما يمتلكان دلالة أساسية
بالنسبة إليها، ويكونان إمكانيتين لمقاربة الأدب وأساليبه المختلفة مما حمل هنريش
بليث على القول: "إن بلاغة الأسلوب ستشد إليها انتباهنا، ليس لأنها توجد في
مركز الحوار فحسب، ولكن ذلك أيضا وبشكل خاص لكونها نقطة التقاء ثلاثة
مباحث أخرى هي: البلاغة، الأسلوبية، والشعرية." ⁽²⁰⁾

والسؤال الذي يفرض نفسه، في ظل الأهمية التي تولى للأسلوبية على حساب
البلاغة، هل تستطيع الأسلوبية كعلم حديث للأسلوب أن تقوم مقام البلاغة،

19 هنريش بليث: البلاغة والأسلوبية، ص: 23-24.

20 المرجع نفسه، ص: 20.

وأیضا تلعب دورها التعليمي المعیاري؟ وهل تستطيع التوفيق بين المنهجية العلمية للبحث اللغوي، وبين الطابع الذوقي للبلاغة أو النقد الأدبي؟.

ومما لا شك فيه أن البلاغة قامت بدور أساسي بين علوم الأدب ونقده، فهي تعلم الأفضل من الأقوال والأقوام من التراکيب، وذلك بمعيارية تقوم على الذوق السليم، ولكن طموح الأسلوبية باعتبارها فرعا من فروع الشجرة اللسانية ينبه الباحث إلى حقيقة البحث البلاغي ومعياريته بينما الأسلوبية تريد أن تحد بحثها بالظاهرتين، الأسلوبية واللغوية وتريد على الخصوص دراسة الأسلوب من خلال اللغة وليس من خلال قواعد البلاغة المعيارية أو سواها.⁽²¹⁾

وتعد البلاغة في خطوطها العريضة فنا للكتابة، وفنا للتأليف في الوقت نفسه؛ إنها فن لغوي وفن أدبي، وهاتان سمتان قائمتان في الأسلوبية المعاصرة، فهي أسلوبية القدماء، وهي علم الأسلوب، كما كان يمكن للعلم أن يدرك حينئذ في شرطه التاريخي.⁽²²⁾

فلا غرابة بعد ذلك أن يلتقي على وجه من التناسب والانسجام التحليل المضموني للتعبير الذي أنجزته البلاغة مع الطريقة البيانية، التي تقوم بها اللسانيات، وقد نشأت أسلوبية التعبير عن البلاغة القديمة ولكن بطرق جديدة، والدليل الواضح على إسهام البلاغة ودورها الأساسي الذي يحدد دراسة الصور، فما تزال في الغالب دراسة بلاغية ولم تتجاوزها دراسة أخرى، وهذا ما جعل بيير جيرو

21 عدنان بن ذريل: اللغة الأسلوب، ص: 97.

22 بيير جيرو: الأسلوب والأسلوبية، ص: 16-17.

يؤكد على أهمية البلاغة، إذ يقول: "إنها لتحتوي على مخزون من الملاحظات والتعريفات التي من شأنها أن تجعل اللساني يعيد النظر فيها ويعمقها على ضوء المناهج الحديثة".⁽²³⁾

إن كل ما ذكرناه، سابقا، عن طبيعة العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة، والملايسات التي اكتنفتها كان من وجهة نظر تريد التقريب بين العلمين ومد الجسور المعرفية بينهما. بينما تبرز وجهة نظر أخرى ترى تنافرا في العلاقة بين العلمين، ولا يمكن أن يوجد معا، والواقع اللساني يقر بأن الأسلوبية إنما هي وريث البلاغة.⁽²⁴⁾ ومعنى الوريث هنا هو كونها البديل في عصر البدائل، والقطيعة مع المناهج التقليدية التي أثبت التطور التاريخي فشلها، وبناء عليه فقد ذهب المسدي إلى القول: "لأسلوبية واللسانيات أن تتوحد، أما الأسلوبية والبلاغة كمتصورين فكريين فتمثلان شحنتين متنافرتين متصادمتين لا يستقيم لهما تواجد في تفكير أصولي موحد".⁽²⁵⁾

وقد أقر الباحثون، من هذا المنطلق، أن الأسلوبية وليدة البلاغة ووريثها الشرعي، فالأسلوبية "امتداد للبلاغة ونفي لها في نفس الوقت، هي لها بمثابة حبل التواصل وخط القطيعة في نفس الوقت أيضا".⁽²⁶⁾

23 المرجع نفسه، ص: 17.

24 عبد السلام المسدي: الأسلوب والأسلوبية، ص: 42.

25 المرجع نفسه، ص: 52.

26 المرجع نفسه، ص: 52.

3-البلاغة والأسلوبية : المفاصل الفارقة :

وذلك ما يلخص المسدي، فقد أبرز الفروق القائمة بين المنظورين البلاغي والأسلوبي فيما يلي:

1-البلاغة علم معياري يرسل الأحكام التقييمية ويرمي إلى تعليم مادته، وموضوعه: بلاغة البيان، بينما ترفض الأسلوبية كل معيارية ولا تسعى إلى غاية تعليمية.

2-البلاغة تحكم بمقتضى أنماط مسبقة وتصنيفات جاهزة، بينما تتحدد الأسلوبية بقيود منهج العلوم الوصفية.

3-البلاغة ترمي إلى خلق الإبداع بوصاهاها التقييمية بينما تسعى الأسلوبية إلى تعليل الظاهرة الإبداعية بعد أن يتقرر وجودها.

4-البلاغة اعتمدت فصل الشكل عن المضمون في الخطاب اللساني فميزت في وسائلها العملية بين الأغراض والصور بينما ترغب الأسلوبية عن كل المقاييس الما قبلية وترفض مبدأ الفصل بين وجهي العلامة اللغوية الدال والمدلول إذ لا وجود لكليهما إلا متقاطعين ومكونين للدلالة فهما بمثابة وجهي ورقة واحدة.⁽²⁷⁾

وحصيلة المقارنة بين البلاغة والأسلوبية تتجمع في قول عبد السلام المسدي: "أن منحى البلاغة متعال بينما تتجه الأسلوبية اتجاها اختباريا، معنى ذلك أن المحرك للتفكير البلاغي قديما يتسم بتصوير ماهي. بموجبه تسبق ماهيات الأشياء وجودها، بينما يتسم التفكير الأسلوبي بالتصور الوجودي الذي بمقتضاه لا تتحدد

27 المرجع نفسه، ص: 53.

للأشياء ماهياتها إلا من خلال وجودها، لذلك اعتبرت الأسلوبية أن الأثر الفني معبر عن تجربة معيشة فرديا".⁽²⁸⁾

وتبعاً لهذا التمايز في هوية العلمين، فالباحث البلاغي يعتمد على ما ثبت من مقاييس ومعايير، جعل لها السابقون مسميات ومصطلحات وليس في مستطاعه أن يخرج عنها في معاملة النص الأدبي بينما نظيره الأسلوبي فيدرس الظواهر الأدبية في سياقات معينة ويبحث ما لتلك التنظيمات اللغوية من خصائص إبداعية فنية.⁽²⁹⁾

وبهذا الصدد يذكر لطفي عبد البديع، في معرض تسجيل المفارق الموجودة بين العلمين، أن الأسلوبية الجديدة فإنها على الجملة لا تكتفي بتعيين ما هنالك من خصوصيات للكلام، ولا تعتمد على تعميم الأحكام، بل تبحث عن العلل وتقيم من التحليل الذري الذي تعتمده البلاغة مبدأً موحدًا جامعاً لها ثم تجريها على غاية استطبيقية (جمالية) عامة تداخل العمل الأدبي كله وتجلي روح الإنسان فيه، فالصور البيانية وأنواع البديع ليست صيغاً تالية يؤتى بها للتزيين وللتحسين، وإنما هي جوهرية في لغة الشاعر لا تتحقق المادة الشعرية إلا بها واللغة الشعرية من خلق الشاعر.⁽³⁰⁾

28 المرجع نفسه، ص: 54.

29 رجاء عيد: البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، منشأة المعارف الإسكندرية 1993، ص: 19.

30 لطفي عبد البديع: التركيب اللغوي للأدب بحث في فلسفة اللغة والاستيطيقا، مكتبة لبنان الشركة المصرية العالمية للنشر، لو نجمان، ط: 1، 1997، ص: 91-92.

وينبه إلى نقطة مهمة تتمثل في كيفية تعامل كل من الأسلوبية والبلاغة مع اللغة، فاللغة في الأسلوبية مرجعها الأساسي الشاعر، فهو الذي يملك التصرف فيها والقدرة على الخلق والإبداع، أما في منظور البلاغة فاللغة عالم له وجوده الخاص بقطع النظر عن الشاعر. وقد أحصى نور الدين السد جملة الفروق الثابتة بين الأسلوبية والبلاغة وحصرها في سبع عشرة نقطة، نذكر منها الأهم من خلال هذا الجدول التوضيحي⁽³¹⁾:

الأسلوبية	البلاغة
علم وصفي ينفي عن نفسه المعيارية.	علم معياري.
لا تطلق الأحكام التقييمية.	يرسل الأحكام التقييمية.
لا تسعى إلى غاية تعليمية.	يرمي إلى تعليم مادته.
تحدد بقيود منهج العلوم الوصفية.	تحكم بمقتضى أنماط مسبقة.
تسعى إلى تعليل الظاهرة الإبداعية بعد أن يتقرر وجودها.	يقوم على تصنيفات جاهزة.
لا تقدم وصايا لكيفية الإبداع الأدبي.	يرمي إلى خلق الإبداع بوصايا تقييمية.
لا تفصل بين الشكل والمضمون.	يفصل الشكل عن المضمون.
تعد الانزياحات عوامل غير مستقلة وتعمل في علاقة جدلية مع باقي عناصر الخطاب كله.	تعد الانزياحات وسواها من الظواهر عوامل مستقلة لحسابها الخاص.
تدرس الألفاظ الفصيحة وغير الفصيحة	يهتم بفصاحة الألفاظ وانسجام الأصوات ويقول بمجر الألفاظ غير

31 نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب ، ج:1، ص: 28.

وتحللها وتحدد وظائفها ولا تقول بهجر أي عنصر من العناصر. لا تطلق أحكاما قيمية على أجراء من الخطاب أو الخطاب كله. تشير إلى مكونات الخطاب جميعا وتبحث فيما تفضي إليه بناء وتناسقا وشكلا ومضمونا. تبحث في قوانين الخطاب ومكوناته البنوية والوظيفية. تدرس الخطاب دراسة شمولية من حيث الظاهر والباطن.	الفصيحة والمركبة من أصوات متقاربة في المخارج والصفات. يطلق الأحكام القيمية على أجزاء من الخطاب تشير إلى العناصر البلاغية المكونة للخطاب دون البحث فيما تقتضي إليه من بناء وتناسق. لا تبحث في قوانين الخطاب الأدبي. يدرس الخطاب دراسة جزئية.
---	---

وقد قدم محمد عزام تفسيراً فلسفياً موضوعياً لهذه الفروق بين العلمين عندما ينص على أن رؤية الإنسان الحديث تختلف عن رؤية سلفه الذي كان مقيداً بمجموعة من القواعد المنتظمة التي تمثل ثقافة عصره وفكرته عن الإبداع الأدبي واللغوي، وإذا كان العالم القديم يعيش في عالم مخلوق تخضع فيه كل الأشخاص والأشياء لمراتب ومقولات لها علاقة بالعقل والحق والخير والجمال وغيرها من المثل الأفلاطونية، فإن العالم الحديث، وقد ألغى كل هذه المنطلقات وحولها إلى خلق متجدد خاضع للتجربة، فقدت البلاغة حقوقها، وألغت قواعدها وقوانينها النموذجية بعد أن تغيرت نظرة الإنسان إلى المجتمع والحياة والكون، فتغيرت تبعاً لذلك وظائف اللغة ولم تعد مجرد صورة لشكل خارجي بل أصبحت وسيلة هامة

للتواصل وللتعبير عن الأفكار والمشاعر في موقف محدد نابع من ذوات الأفراد ووضعهم الاجتماعي ما جعل اللغة، وبالتالي البلاغة تبرز بالحياة العملية، ومن هنا ماتت البلاغة ليولد مكانها علم الأسلوب.⁽³²⁾

والأسلوبية، اليوم، أصبحت هي البلاغة الجديدة المنوط بها القيام بدورين أساسيين، كعلم للتعبير وكنقد للأساليب الفردية، بعد القصور الذي لوحظت جوانبه في حق البلاغة وقد أتاح الفرصة للأسلوبية الحديثة لأن تكون وريثة شرعية للبلاغة القديمة.

فهذه الأخيرة قد جمدت عند حدود التعبير ووضع مسمياته وتصنيفها ولم يخطر لها على بال محاولة دراسة العمل الأدبي الكامل كبنية، وكان بمثابة تمهيد لحلول الأسلوبية في مجال الإبداع كبديل يحاول تجاوز الجزئية القديمة وإقامة بناء علمي يتعد عن الشكلية البلاغية التي كادت أن تغطي على قيم البلاغة الجمالية.⁽³³⁾

وهكذا بعدما فقدت البلاغة أهميتها بعدها مجموعة من التصورات والمناهج التقييمية المعيارية، وانحلت في علم الأسلوب الحديث "لا من حيث كونها مجموعة من الصفات التي تؤدي إلى الكتابة الجيدة، إذ لم يعد هذا مطابقا لفكرة الإنسان اليوم عن اللغة والحياة والحياة، بل من حيث كونها جهدا مخلصا يهدف إلى

32 محمد عزام: الأسلوبية، منهجا نقديا، ص: 38-39.

33 محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، ص: 259.

الاقترب من مناطق القوة في التعبير والتأثير ومكوناهما اللغوية والجمالية".⁽³⁴⁾

والأسلوبية لم تكن تعني، أبداً، القطيعة الكاملة مع البلاغة، وكيف يكون ذلك وأولى الأسلوبيات قامت على أساس من البلاغة، ولا تزال المفاهيم والتصورات والأشكال التعبيرية التي قدمتها البلاغة مصدراً ثرياً ومعطاءً في البحث والتحليل الأسلوبي.

وفي الأسلوبية البنيوية، نجد جاكبسون يحتفظ من معطيات البلاغة القديمة بالمفاهيم المتصلة بالصورة والاستعارة والمجاز والكناية ويحاول إيجاد تفسير مناسب لها في ضوء اللسانيات الحديثة، ويبين كيفية توظيفها توظيفاً فنياً.

ومع التراجع المسجل للبلاغة في ميدان العلوم الإنسانية وتقدم الأسلوبية ملء هذا الفراغ، فقد وجدت محاولات جادة سعت لإنشاء صيغة ملائمة للتكامل بين العلمين أو بعبارة أدق سعت إلى بعث بلاغة جديدة مواكبة للأسلوبية.

* مراجع الدراسة :

1-المصادر والمراجع :

- 1- صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1992.
- 2- منذر عياشي: مقالات في الأسلوبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط:1، 1990.
- 3- عبد السلام المسدي: في آليات النقد الأدبي، دار الجنوب للنشر، تونس 1994 .
- 4- هنريش بليث: البلاغة والأسلوبية، تر: محمد العمري، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، 1999م.
- 5- عدنان بن ذريل: اللغة الأسلوب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1980.

34 محمد عزام: الأسلوبية منهجاً نقدياً، ص: 40.

- 6- بدير جبرو: الأسلوب والأسلوبية، تر: منذر عياشي، مركز الأنماط القومي لبنان (د.ت).
 - 7- عبد السلام المسدي: الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، ط: 2، 1982
 - 8- رجاء عيد: البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، منشأة المعارف الإسكندرية 1993.
 - 9- لطفي عبد البديع: التركيب اللغوي للأدب بحث في فلسفة اللغة والاستيعاب، مكتبة لبنان الشركة المصرية العالمية للنشر، لو نجمان، ط: 1، 1997.
 - 10- نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب ، ج: 1، دار هوم، الجزائر 1997.
 - 11- محمد عزام: الأسلوبية منهجا نقديا، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط: 1، 1989.
 - 12- محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر لبنان ط 1، 1994م
 - 13- جوزيف ميشال شريم: دليل الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط: 2، 1987،
- 2- دوريات :

- (1) مجلة الفكر العربي المعاصر، ع: 38، آذار 1986.
 - (2) مجلة فصول م: 5، ع: 1 أكتوبر / نوفمبر / ديسمبر 1984.
 - (3) مجلة الفيصل، ع: 103، سنة 1995.
 - (4) مجلة الموقف الأدبي، ع: 71 آذار 1977 .
- 3-قواميس :

1- *Le Petit Larousse illustré, Larousse, Paris, 1995 .*

2- *Le Robert D Alphabet, Paris, Ed6 1981, .*
